تفسير ابن كثير

يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد صلى ا عليه وسلّم ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله { ولو أن قرآنا سيرت به الجبال } أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورهم لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له { بل الأمر جميعا } أي مرجع الأمور كلها إلى ا D ما شاء ا كان وما لم يشأ لم يكن ومن يضلل ا فلا هادي له ومن يهد ا فما له من مضل وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجميع .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [خففت على داود القراءة فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يديه] انفرد بإخراجه البخاري والمراد بالقرآن هو الزبور وقوله { أفلم ييأس الذين آمنوا } أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا { أن لو يشاء ا لهدى الناس جميعا } فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله ا على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية ا وثبت في الصحيح أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه ا إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة] معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته وهذا القرآن حجة باقية على الاباد لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه ا ومن ابتغى الهدى من غيره أضله ا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحارث أنبأنا بشر بن عمارة حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفي قال : قلت له : { ولو أن قرآنا سيرت به الجبال } الاية قالوا لمحمد صلى ا عليه وسلّم : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه فأنزل ا هذه الاية قال : قلت : هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي صلى ا عليه وسلّم قال : نعم عن أبي سعيد عن النبي صلى ا عليه وسلّم وكذا روى ابن عباس والشعبي وقتادة والثوري وغير واحد في سبب نزول هذه الاية وا أعلم وقال قتادة

: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم .

وقوله { بل ﷲ الأمر جميعا } قال ابن عباس : أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل رواه ابن إسحاق بسنده عنه وقاله ابن جرير أيضا وقال غير واحد من السلف في قوله { أفلم ييأس الذين آمنوا } : أفلم يعلم الذين آمنوا وقرأ آخرون : أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء ﷲ لهدى الناس جميعا وقال أبو العالية : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو يشاء ﷲ لهدى الناس جميعا وقوله : { ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم } أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا كما قال تعالى : { ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون } وقال { أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون } قال قتادة عن الحسن { أو تحل قريبا من دارهم } أي القارعة وهذا هو الظاهر من السياق .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا المسعودي عن قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : { ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة } قال : سرية { أو تحل قريبا من دارهم } قال محمد صلى ﷲ عليه وسلّم : { حتى يأتي وعد ﷲ } قال [فتح مكة] وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في رواية وقال العوفي عن ابن عباس { تصيبهم بما صنعوا قارعة } قال : عذاب من السماء ينزل عليهم { أو تحل قريبا من دارهم } يعني نزول رسول ﷲ صلى ﷲ عليه وسلّم بهم وقتاله إياهم وكذا قال مجاهد وقتادة وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس { قارعة } أي نكبة وكلهم قال { حتى يأتي وعد ﷲ } يعني فتح مكة وقال الحسن البصري : يوم القيامة وقوله : { إن ﷲ لا يخلف الميعاد } أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والاخرة { فلا تحسبن ﷲ مخلف وعده رسله إن ﷲ عزيز ذو انتقام }